

السوسيو نصية في خطاب التنظير في النقد الجزائري
*The Socio_ textual in the theorizing discourse in the
 Algerian criticism*

* مريم شويشي

* مصطفى شويرف

تاريخ النشر: 2021 / 03 / 30	تاريخ القبول: 2020 / 10 / 21	تاريخ الإرسال: 2020 / 08 / 12
-----------------------------	------------------------------	-------------------------------

الملخص:

سنحاول في هذا البحث قراءة المنهج السوسيو نصي في المقاربات النقدية الجزائرية، مسلطين الضوء على الجانب النظري في دراساتهم، وقد اقتضت الخطة في هذا البحث أن نتناوله في جزئيتين، وقد ارتأينا أن نخصص الجزئية الأولى لمفاهيم وحدود علم اجتماع النص (السوسيو نصية) كما جاءت مع روادها في الغرب بغية الوصول إلى فهم ماهية المنهج من جهة، وليكون هذا المحور المرتكز النظري لتقييم المنجز النقدي الجزائري من جهة أخرى، وخصصنا الجزئية الثانية لدراسة مصطلح السوسيو نصية كما جاء في أدبيات نقادنا ثم مناقشة وتحليل التجربة النقدية في الجزائر للمنهج على مستوى التنظير.

الكلمات المفتاحية: السوسيو نصية، النقد الجزائري، التنظير، اللهجة الجماعية، سوسيولوجيا المضامين.

المؤلف المرسل: مريم شويشي meryemch14@gmail.com

* جامعة مصطفى اسطنبولي، معسكر meriem.chouichi@univ-mzscara.dz

* جامعة مصطفى اسطنبولي، معسكر chouirfm@yahoo.f

Abstract:

We will try in this research to read the socio- textual method in the Algerian critical approaches, we will shed light to the theoretical side in there studies.

The plan needs to mention the research through to parts: the first included the limits and the concepts of this method as the western pioneers dealt with. In order to understand the method in one hand, on the other hand to make this part as a base to evaluate the Algerian critical achievement. Then, we specialized the second part to analyzed and discuss the critical experience in Algeria on the level of theorizing.

Key words: *Socio- textual, the Algerian criticism, theorizing, Sociolect,*

*** **

1. مقدمة:

بعد هيمنة المقاربات الأحادية التي ربطت النص بمضمونه الاجتماعي التي أغرقت فيها سوسولوجيا الأدب، كان لا بد من إعادة النظر في مسار النقد الاجتماعي ومفاهيمه النظرية وأدواته التحليلية، وعليه جاءت السوسيو نصية (النقدية) كنظرية تعيد الاعتبار للنص من خلال تركيزها على بنياته اللغوية والدلالية والسردية دون عزله عن سياقاته الاجتماعية والتاريخية، ولعل هذا ما شجع البحثة إلى الالتفات إلى هذا الوافد الجديد ومحاولة تبسيطه وتقديمه للقارئ الجزائري على وجه الخصوص، فكيف تمثل نقادنا حدود ومفاهيم ومصطلحات هذا المنهج في دراساتهم على المستوى النظري؟

2. من سوسولوجيا المضامين إلى سوسولوجيا الكتابة

نتيجة للظروف التاريخية والثقافية والاقتصادية التي سادت العصر الحديث بظهور المشاريع الصناعية الكبرى تولدت اضطرابات اقتصادية نشأت على إثرها صراعات حادة بين طبقتين اجتماعيتين: طبقة مهيمنة معروفة باسم الطبقة البرجوازية، وطبقة مسيطرة عليها نتيجة أوضاعها الكادحة والفقيرة عرفت باسم طبقة العمال أو البروليتاريا

.وبديهي . حسب الماركسية . أن يكون لهذا التغيير الذي مس جميع الميادين الأثر الواضح على الفن و الأدب. فهاهو "بليخانوف" يدعو الأدباء إلى استيعاب تعاليم الماركسية من أجل إيقاظ الرأي العام يقول: "نحن لا نقترح على أدبائنا الشرعيين أن يكونوا دعاة لاستنتاجات ماركس النهائية (...). نحن ننصحهم فقط باستيعاب المقدمات الأساسية لهذه التعاليم (...). استوعبوا هذه الأحكام والمبادئ بصورة جيدة وعندها لن تكتبوا عن المبادئ مثلما تكتبون في الوقت الحاضر على الإطلاق"¹، فالماركسية وقفت إلى جانب البروليتاريا وتبنت الاشتراكية وجعلت منها علما يقوم على تحليل حركة التاريخ الفعلي وعلى القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الرأسمالي يقينا منها أن الاشتراكية هي المرحلة التالية في تطور المجتمع، وأن هذا لا يتحقق إلا بنضال الطبقة العاملة ضد الطبقة الرأسمالية²، كما يشمل النضال . أيضا . الطبقة المثقفة من الأدباء والفنانين .

إن الفن من المنظور الواقعي الاشتراكي يستمد مقوماته من واقع الحياة اليومية، فالمبدع ينغمس في أعماق المجتمع و يصور كل ما فيه من تناقضات وصراعات ثم يحولها إلى لغة الفن وهو ما توضح من قول "ترو تسكي": "فكلما كان الأدب أعمق اشتدت رغبته في صياغة الحياة، وكان أقدر على رسم الحياة بصورة دالة ودينامية"³ وهو الأمر الذي يعكس الرغبة الشديدة في صياغة أدب أكثر قدرة وفاعلية في التأثير على الجماهير بغية الوصول إلى الأهداف المنشودة، ما جعل "مكسيم غوركي" يراه "عاملا من عوامل الكفاح من أجل تحرير الشعوب، وأنه عنصر فعال لخدمة قضايا الإنسانية ووسيلة لبناء الحياة وتطورها"⁴، فالفنان مثله مثل المناضل في صفوف الثورة له مهمة المشاركة في إعدادها، من خلال بث الوعي الثوري في صفوف المواطنين ونقل همومهم، والتعبير عن مشاكلهم تعبيرا صادقا، فالإبداع بالنسبة إلى البروليتاريا يحي ليدافع عن قيمها ومبادئها ، ويشهد صراعاتها ويسجل انتصاراتها ضد البرجوازية.

نجد ضمن التوجه نفسه آراء "فلادمير لينين" الذي أسهم هو الآخر في بلورة مشروع نقدي حول علاقة الإبداع الروائي بالمجتمع ومدى مساهمته في الصراع الأيديولوجي والاجتماعي والثقافي، فركزت كتاباته في تحليلها للأعمال الروائية التي كتبها "لوي تولستوي" على "القيم الاجتماعية وكذا الأيديولوجية السائدة في المجتمع، ومقابلتها بالعناصر الأيديولوجية التي احتوت عليها أعمال تولستوي وذلك بالربط بين المقومات التاريخية لضرورة المجتمع ونظام أفكار طبقاته المختلفة ومقارنتها بالنماذج التي احتوتها هذه الأعمال الروائية، بعد ذلك تتم الإشارة إلى النسق الفكري الأيديولوجي للكاتب ورؤيته الشخصية، وتقويم دوره المهم في الحياة الواقعية"⁵، ومن جهته أكد "بليخانوف" على أهمية عنصر الصدق و أعطاه مكانة خاصة ضمن فلسفته الجمالية الماركسية . فالصدق في تقويم الواقع هو الميزان الأساسي في الفن وقيمه الرفيعة، على أن يكون الواقع هو المصدر الرئيسي لهذا الفن، وتبقى العلاقات الاجتماعية هي المحرك الرئيس لتطوره⁶، فالماركسية لا تؤمن باستقلالية الفرد وهو ما يؤكده مسعاها من أجل بناء مجتمع بدون طبقات تحت حكم نظام اشتراكي.

لعل إلحاح "بليخانوف" على ضرورة أن يعكس الفن الواقع الاجتماعي، وأن يكون قادرا على تمثيل الصراعات والتناقضات الموجودة في المجتمع "جعلت أولوية المضمون الاجتماعي على الشكل بحيث يصبح الشكل وسيلة لتجسيد المضمون في العمل الأدبي، وتصبح مهمة الناقد أو الدارس أساسا هي اكتشاف المضمون ومدى قدرة الكاتب على عكس قضايا الواقع الاجتماعي"⁷، فكان الطابع الغالب على مختلف هذه الرؤى تركيزها على المدلول الاجتماعي والإيديولوجي للأعمال الروائية مع إهمال الجانب الفني، كما تعاملوا مع النصوص الأدبية بوصفها وثائق تاريخية وسياسية ما جعل النقد الجدلي نقدا أيديولوجيا صريحا في بداياته.

1.2. جورج لوكاتش (1885/1971):

عمل لوكا تش بعد تبنيه الفكر الماركسي . بعدما كان مثاليا هيغليا . على تحرير النقد الجدي من آلية الانعكاس الآلي التي فرضتها أعمال بعض أعلام هذا التوجه، كما عمل على تأسيس جمالية روائية لا تنظر إلى المضامين فقط بل تلتفت إلى الأشكال الأدبية أيضا، ولعل هذا الموقف جعله ينظر إلى الفعل الأدبي باعتباره تمثيلا للحياة الاجتماعية إذ "ينقل تجربة إنسانية حية ومعقدة؛ أي ينقل رؤية فنية للعالم. الانعكاس ليس إدراكا مباشرا وسريعا أو التقاطا للعوارض بصورة مسطحة وبمنأى عن النفاذ إلى الجوهر، إنه القدرة الإبداعية على الإمساك بالكلية الاجتماعية بغية الغوص فيما هو كامن خلف الظواهر الحسية وما يمثل حقيقة جوهرية"⁸، فما جعل "بلزاك" عظيما في نظره ما ورد في روايته "الفلاحون" من أفكار مناقضة تماما لأفكاره (بلزاك) ولأرائه الشخصية، وقد استطاع بفضل صدقه الفني وواقعيته أن يكشف عن الطبقات المتناقضة في المجتمع آنذاك ما جعله من طينة كبار الروائيين وعندهم يقول لوكا تش: "...، وقد استطاعوا إذا أرادوا أن يكونوا واقعيين كبارا أن يصوروا الحياة المتنافرة الممزقة، الحياة التي تسحق كل ما في الإنسان من جميل بلا رحمة (...). وكانت النتيجة النهائية التي وصلوا إليها أن المجتمع الرأسمالي مقبرة كبيرة للأصالة والعظمة الإنسانيين"⁹

فما يميز تصورات "لوكا تش" هو تجاوزها لحدود المذهب الطبيعي الفوتوغرافي من جهة، واعتمادها التعبير الأكثر صدقا ووضوحا الأمر الذي جعله حريصا دوما على ضرورة النقل الأمين للوقائع المصورة دون أن يعني هذا التردد الحرفي فالفنان أو المبدع كما يبين الناقد "عمار زعموش" يتأثر قبل كل شيء بهذا الواقع الموضوعي ليعود بعد ذلك فيؤثر فيه، أي أن الواقع بجميع مكوناته هو مصدر تلك التجارب الفنية أو الأدبية، والعلاقة بين الواقعيين (الموضوعي والفني) تتلخص في عملية التحويل التي يقوم بها الأديب، فالواقع الفني هو حصيلة تفاعل الأديب أو المبدع مع معطيات الواقع الموضوعي ومراعاة الشروط الخاصة بذلك على أن الواقعية لا ترتبط بوجود هذه الصلة بين

الواقعين فحسب، إنما ترتبط برؤية الكاتب أو الناقد لهذا الواقع وكيفية تناوله¹⁰، فالإبداع حسب "لوكاش" لا يمثل الواقع في حد ذاته وإنما هو انعكاس له مع إمكانية تجسيده في الفرد أو المجتمع.

2.2 لوسيان غولدمان (1913/1970)

ركز "غولدمان" جهوده في اتجاه إبراز العلاقة التماثلية القائمة بين الإبداع الأدبي والمجتمع، متجاوزا التحاليل المضامينية التي أغرقت فيها سوسيولوجيا المضامين وهذا بعد دراسته وقراءاته للأعمال الفكرية والأدبية لـ"باسكال" و"راسين" المتعلقة بالجانسينية أو طبقة نبلاء الرداء التي ينتمي إليها الكاتبين؛ ووفق هذه الأعمال تحددت الرؤية للعالم لدى هذه الزمرة وهنا تكمن عظمة المبدعين حسب "غولدمان"، فالنص الإبداعي بنية صغرى تتولد عن بنية كبرى هي البنية الاجتماعية، فـ"غولدمان" ينظر إلى الإبداع الأدبي من زاويتين: أولا علاقته (الإبداع) بالذات الجماعية باعتبارها الفاعل الحقيقي له، ثانيا تفسير هذه العلاقة على مستوى البنية العميقة للنصوص، فكانت الرؤية للعالم من هذا المنظور "هي بالضبط تلك المجموعة من التطلعات والأحاسيس والأفكار التي تجمع أفراد فئة ما (وغالبا ما تجمع طبقة اجتماعية) وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى"¹¹، ويصبح المبدع . بذلك . صاحب رؤية كونية يكتسبها من الزمرة أو الفئة ثم يعيدها إليها في شكل أسلوب فني فردي والمبدع العظيم هو القادر على ذلك في نظر البنيوية التكوينية.

3. ميخائيل باختين (1895/1975):

اهتمت سوسيولوجيا النص الروائي مع "باختين" بالأبعاد الداخلية للنصوص، وتحديدًا بلغتها ونظامها الداخلي متجاوزة الانعكاس بوجهيه الآلي والديالكتيكي: ذلك أن "الرواية كلا ظاهرة متعددة في أساليبها متنوعة في أنماطها الكلامية، متباينة في أصواتها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة توجد أحيانا في مستويات لغوية مختلفة وتخضع لقوانين أسلوبية مختلفة"¹²، فاللغة بالنسبة إلى "باختين" منطلق أساسي يقوم على التعددية والاختلاف، وهي مصدر الأفكار والمقصدية وفي ضوء تلك

الأفكار تكمن الأيديولوجيا والواقع. وهكذا تأسست سوسولوجيا النص عنده على المنظور السوسولوجي الذي يركز على اللغة الحوارية بعيدا عن لغة المعاجم المجردة، فالهم هو "اللغة الممتلئة أيديولوجيا، اللغة بوصفها نظرة إلى العالم، بل حتى بوصفها رأيا مشخصا، اللغة التي تضمن أقصى حد من التفاهم في كل دوائر الحياة الأيديولوجية"¹³، فالكلمة في نظر "باختين" ذات حمولة ومضمون هما جوهر النثر الفني.

هذا وشكل السياق التاريخي عند "باختين" مكانة خاصة تشخص من خلالها الكلمة وتكسبها بعدها التواصل، فتعيين الكلمة لا يتحقق إلا بعد إدراجها ضمن سياق تاريخي حقيقي لا في إطار سكوني ثابت، لهذا يصر دائما على إبقاء الكلمة محايدة للسياق التاريخي، حتى تتجنب فخ السكونية والثبات وادعاء الحيادية المطلقة، وبالنسبة إليه فإن النظر إلى الكلمة في ذاتها ومن أجل ذاتها يفقدها دلالاتها لأن "دراسة الكلمة في ذاتها مع إغفال توجهها خارج ذاتها عبث كعبث دراسة المعاناة النفسية خارج الواقع الفعلي المتوجهة إليه هذه المعاناة والمحكومة به"¹⁴، فالعنصر لا يكتسب قيمته الحقيقية وقصديته إلا في ارتباطه وتفاعله مع عناصر أخرى سابقة عليه ولاحقة. فالكلمة بدون حمولة أيديولوجية ليست شيئا واللغة داخل المعاجم لن تكون إلا ساكنة، فاللغة بالنسبة إلى "باختين" ليست نظاما ثابتا مغلقا بل مجموعة من البنى التاريخية المتغيرة والتي ترجع تحولاتها إلى الصراعات الاجتماعية والتجديدات التي تأتي بها.¹⁵

إن ما يميز كتابات "باختين" هو عنصر "الحوارية" الذي أعطى مسارا جديدا للدراسات الأدبية الحديثة، فبعدها كانت الرواية في التصورات التقليدية موضع تصنيفات أيديولوجية معينة، جاء اهتمام سوسولوجيته بالبحث عن مدى "احتواء الكلمة لموضوعها وتعبيرتها من الداخل"¹⁶، ومن هذا المنطلق يجعل "باختين" من "الحوارية" جوهر الخطاب الروائي ويرى أن أي توجه إلى البحث في النص قيد الدراسة هو بحث عن المجتمع على مستوى البنية اللغوية، وعلى غرار "غولدمان" اهتم "باختين" بالبعد

السوسیولوجی للروایة، فسوسیولوجیا النص عنده تہدف إلى الکشف عن البنی الاجتماعیة المتصارعة فی مستويات النص المدروس إلا أنه یختلف معه فی قضیة التناظر . کما یوضح حمید لحمیدانی . التي لم یقل بها فالواقع عنده (باختین) حاضر فی النص الروائی علی المستوى اللغوی نفسه¹⁷ ، وعلیه لم یعد ینظر إلى تصنیف الخطاب الروائی ضمن خانة أیدیولوجیة محددة هو الشغل الشاغل بل أصبح هم الناقد هو الإنسان المتکلم وکلمته فی الروایة اللذین یحددان الأصالة الأسلوبیة للجنس الروائی.

2. 4 . بییر فالیری زیما (1946):

إن اهتمام سوسیولوجیا النص مع "زیما" منصب علی مسألة معرفة "کیف تتجسد القضايا الاجتماعیة والمصالح الجماعیة فی المستویات الدلالیة و التרכیبیة والسردیة للنص"¹⁸ ، ومن هنا نفهم أن هم "زیما" کله متجه إلى الکشف عما هو کامن فی المستویات اللغویة المعجمیة والتרכیبیة والسردیة للنصوص؛ أي البحث عن الصراعات الاجتماعیة المتموضعة داخل هذه البنی اللغویة، منطلقا من فرضیة مؤداها أن "اللغات الجماعیة تستوعبها وتحولها النصوص الأدبیة التي تلعب فیها هذه اللغات دورا هاما."¹⁹

إن النص الأدبی من منظر "زیما" بنیة مستقلة، فاللغة فیہ لا تعکس الواقع بل تحوله إلى قضايا سردیة ودلالیة، فعلم اجتماع النص کما یبین لا یختزل النص إلى مجرد بنی موضوعیة بل الأهم هو البنی اللغویة لهذه النصوص، وعلیه شکلت اللغة المحور الأساسی الذی انطلق منه "زیما" باعتبار المجتمع کامن فی النص، هذا ما جعله یتساءل عن الطابع الألسنی للأیدیولوجیات والفلسفات والنظریات الاجتماعیة "أو لیست هذه جمیعها مصنوعة من کلمات . شأن الأبیات الشعریة التي أحال إليها مالارمیہ؟ ثم إن هذه الکلمات، ألیست بدورها مرتبطة ببنیات دلالیة، تصیر لها الأرجحیة فی صیاغة المسافات التרכیبیة والسردیة التي يتألف منها خطاب معین؟"²⁰ ، و بهذا یكون علم

اجتماع النص مهتما بكيفية القول انطلاقا من مستوى الكتابة أي؛ بمعرفة الطريقة التي تصبح على إثرها النصوص مجالا للصراعات الأيديولوجية والمصالح الاجتماعية المتعارضة؛ أو كيف وجد المجتمع في النص؟. وعلى ذكر البنى اللغوية فإن مجال البحث في النصوص من وجهة نظر سوسولوجيا النص لا يتوقف عند حدود البنية الظاهرية (التركيبية) وحسب، نظرا لوجود بنى عميقة دالة تقول ما لا يقوله الظاهر وهو الأمر الذي لفت انتباه "زيما" في نظرية "غريماس" السيميائية التي تجاوزت المقاربة التركيبية وعنها يقول "ما يستحق الاهتمام ، من وجهة نظر علم اجتماع النص هو الفكرة التي طرحها غريماس و وافقه عليها برييتو، ومفادها أن البنى الدلالية (أو الاستدلالية بمنظور سوسير) الكامنة خلف الخطب هي التي تنطوي على المصالح الجماعية وفي الوقت نفسه تحدد الاتجاه العام لمسار النص السرد"²¹، مما يعني أن فكرة أحادية المعنى للنص لا وجود لها في تصور "زيما"، فمثل هذا التوجه لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب العجز وضعف التصور وسذاجته وهو ما عابه على "لوكاتش" الذي "اعتبر أن النص أحادي المعنى"²²، وأغفل على غرار "غولدمان" الجانب اللغوي في دراسته.

وبناء على ذلك انطلق "زيما" في مقارنته للخطاب الروائي من مفهومي أساسيين هما: اللهجة الاجتماعية، والوضعية اللسانية الاجتماعية مع مراعاة اللغات الجماعية المختلفة، ويمكن أن نتبين ذلك من تحليله لروايات "الغثيان" لـ "سارتر" و"اللامباون" لـ "مورافيا" و"الغريب" لـ "كامو" حيث ركز على الظواهر الاجتماعية. اللسانية المهيمنة في هذه النصوص وحصرها في : الالتباس، الازدواجية، واللامبالاة، في علاقتها مع البنى الدلالية والسردية للرواية، من منطلق أن المشكلات الاجتماعية والوجود-غية يمكن أن تقدم على أنها قضايا لسانية²³. ولا يتوقف التحليل عند هذا الحد فحسب لأن النص في هذه الحالة سيكون مجردا وغير مكتمل التحليل، وعلى الناقد أن يبحث ويتعرف على اللهجة الجماعية التي تستوعبها الرواية على مستوى التناص ثم تحديدها، فاللهج

الجماعي بحسب "زيماء" هو الرابط الذي يجمع بين الرواية وبنيتها وبين الوضع السوسيو-لساني (الوضعية الاجتماعية اللسانية)²⁴

إن استكناه النص الروائي ينطلق أولاً من المستوى المعجمي ومن ثم الاتجاه إلى المستوى الدلالي وبالتالي تجاوز حدود الدراسات التقليدية التي تقتصر بالخصوص على البنية اللغوية الأساسية للنصوص، وهذه هي الخطوة التي يراها "زيماء" مدخلا سليما يضمن للنص انفتاحه على تعددية المعنى، فالمصالح الاجتماعية والجماعية كما يؤكد في أكثر من موضع تتجلى بصورة واضحة ومنظمة في المستوى الدلالي أكثر منه في مستوى المفردات المعجمية. ومن ناحية أخرى يرى أنه ينبغي على الناقد تفادي عزل النصوص عن بعضها البعض أو الاكتفاء عند التحليل بنص أو نصين بل ينبغي عليه "أن يختار دائما أكثر من نص، فكل نص يمثل معنى في علاقته بالنصوص الأخرى ويجب عليه أن يعلل هذا الاختيار بالنسبة للمجموع الذي شكله. فالنص المعزول وحده لا يمكن وصفه بالمقارنة مع مصالح اجتماعية وخطابات أيديولوجية، أو أنظمة قيم اجتماعية أو رؤى العالم."²⁵

إن "زيماء" يدرس النص من خلال بعدين: بعد داخلي يهتم فيه بتحليل النص نفسه وإبراز تعدد معانيه وشرحها، وبعد خارجي يركز من خلاله على علاقة المتلقي بهذا النص، فمن الأمور الأكثر الأهمية التي يطرحها "زيماء" مسألة تلقي النصوص والاهتمام بها، فمن مآخذه على "ياوس" في هذا الجانب هو استبعاده للبنية النصية وإنتاجية النص من مجال بحثه فالتلقي بالنسبة لـ"زيماء" يرتبط دائما بالانتاج عبر البنى النصية²⁶، فالنص الأدبي ليس كيانا منغلقا على نفسه بل كيان ملموس وحي له قوانين خاصة يعيش عبرها، إذ تحمل هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التي يعيش في إطارها وابدع ويتلقى²⁷. ومن هنا نستطيع القول أن النص مع "زيماء" لم يعد نصا أحادي المعنى بل نصا منفتحا تظهر وظيفته الجمالية من خلال اشتماله وانفتاحه على نصوص أخرى، فإذا

كانت العلاقة التي تربط بين العمل الأدبي والواقع علاقة مماثلة وتناظر كما قدمها "غولدمان" و"لوكاتش" فإنها مع "زيما" علاقة تناص لأن الكاتب في نظره "لا ينتج إلا بوصفه قارئاً للنصوص الأدبية وغير الأدبية وإنتاجه هو عملية تناص لغوية . اجتماعية."²⁸

وما نستطيع قوله مما سبق أن سوسيولوجيا النص الأدبي قد سعت إلى تجاوز الهفوات التي وقع فيها أصحاب الطرح السوسيولوجي التقليدي وذلك بتوظيفها أدوات إجرائية استهدفت المستوى اللساني بغية الكشف عن الاجتماعي، وهكذا تبدأ القراءة السوسيو نصية من النص وتنتهي إلى المجتمع، فهي ترى أن النصوص تتشرب المجتمع وعليه فوظيفة القارئ/الناقد الكشف عن الاجتماعي من خلال اللغوي.

3. السوسيو نصية في خطاب التنظير في النقد الجزائري:

قدم الباحث الجزائري "عبد الوهاب الشعلان" دراسة متميزة بعنوان (المنهج الاجتماعي وتحولاته؛ من سلطة الأيديولوجيا إلى فضاء النص)، وقد عمد فيه الباحث إلى تقديم المنهج الاجتماعي بمختلف محطاته كما هو واضح من العنوان، متتبعا فيه أبرز خصائصه عند أبرز ممثلي، وقد حظيت السوسيو نصية في العالم العربي بمحور هام في دراسة باحثنا إذ خص الفصل الأخير من دراسته بهذا الموضوع

تضمنت دراسة الباحث سبعة فصول؛ خص الأول منها بالنقد الماركسي وهيمنة الأيديولوجية فيه، ووقف في الفصل الثاني الموسوم بـ (جورج لوكاتش ومعالم التحول في الخطاب الماركسي) على أهم الاتجاهات التي رسمت مسار "لوكاتش" الفكري من الكانطية إلى الهيجلية إلى الماركسية ممثلا لكل مرحلة بكتابات "لوكاتش" (الروح والأشكال، التاريخ والوعي الطبقي، الرواية كملحمة بورجوازية)، كما التفت أيضا إلى "لوكاتش" الناقد الأدبي الذي "أعاد للنص حضوره، وإن ظل المضمون السوسيولوجي مهيمنًا في

كتاباتة"²⁹، وقد خص الفصل الثالث بمقولات ومفاهيم البنيوية التكوينية من حيث أصولها المعرفية والفلسفية، في محاولة لفك اللبس عن مفهوم (التكوين) كما جاء به "غولدمان"، كما قام بتوضيح الجهاز المفاهيمي والإجرائي للمنهج.

تتبع الباحث في الفصل الرابع أهم المفاهيم الإجرائية التي انطلق منها الناقد "ميخائيل باختين" للاقتراب من النص الأدبي، مركزا على نظرية (الكلمة) وعلى الإضافات المهمة التي طرحها "باختين" وساهمت في تصحيح الكثير من الأسس والمبادئ التي انبنى عليها النقد الاجتماعي؛ فعمل ذلك على تحرير الذات المبدعة من مرتبة المصلح الاجتماعي الذي يعكس هموم الجماعة التي ينتهي إليها، كما عمل على تحرير النص الأدبي من بوتقة المقاربات التي حولته إلى بيانات أيديولوجية وسياسية³⁰، غير أن هذه التصحيحات لم تقنع الناقد "شعلان" واعتبرها قاصرة عن النظر إلى الخطاب الأدبي في كل خصائصه ومكوناته، كما أنه لم يتجاوز ما ادعى تجاوزه ف"باختين" في نظره "لم يبرح المفاهيم العامة، ولم يقدم أدوات إجرائية واضحة في المقاربة النقدية، صحيح أنه أكد على فعل التناص، والكلمة الحوارية والكرنفال، ولكنه . في آخر الأمر. ظل يقدم مفاهيم نظرية ذات طابع عام، تفتقد إلى كثير من الإجرائية، إلى جانب أنه سقط . كغيره من النقاد الذين ادعى تجاوز منظوماتهم النقدية . في نفس الإشكالية، وهي الترويج لمبدأ أساس تحاكم به النصوص الأدبية."³¹

وقد عرض الباحث تصورات "باختين" لأصول الجنس الروائي انطلاقا من أعمال "فرنسوا رابيليه" وصولا إلى الحوارية والمونولوجية في الخطاب الروائي، وانطلاقا من هاتين الثنائيتين حاول الباحث توضيح خصوصية الخطاب الروائي وشكله من خلال تحليلات "باختين" لأعمال "دوستوفسكي" وأعمال "تولستوي" منتهيا إلى موقف الناقد "لحميداني حميد" إزاء مفهوم (الحوارية) الذي يقرنه بمرحلة الفهم الغولدمانية ذلك أن "باختين لم يكن معنيا بإشكالية انعكاس الصراعات الاجتماعية في النص واتخاذ موقف

منها، وإنما كان مهتما بطرائق حضور الصراع على مستوى الخطاب اللغوي، ومن ثمة فهو يسعى إلى فهم النص لا إلى تفسيره³²

وهو الأمر الذي تنبه إليه الباحث "رشيد كوراد": إذ اعتبر أن مفهوم الحوارية الذي جاء به "باختين" يتجاوز مجرد الحوار وتبادل الحديث بين الشخصيات وهذا ما يتجلى في قوله: "لكن يجب أن لا نفهم أن باختين عندما يتحدث عن تنوع الحوار أو تعدد الأصوات في النص الأدبي يقصد اعتبار النص مجرد انعكاس آلي للحياة اليومية أو بصيغة أخرى للعلاقات الاجتماعية، وإنما يقصد من مقولته أن المبدع وحده الذي باستطاعته وفق وعي عميق بالواقع وإدراك أعمق بجذلية العلاقات الاجتماعية أن يعيد خلق الواقع جماليا عن طريق أسلوبه وفق تنوع كلامي تتصارع فيه الأصوات وتتغابر لتؤكد واقعيتها"³³

ونسجل ضمن السياق ذاته موقفا آخر يتجاوز المواقف السابقة يجمع بين التحليل العميق والنظرة النقدية الثاقبة ولا يكتفي بتكرار ما قيل؛ إذ نجد للناقد "عبد الكريم شرفي" رأيا يتفق ورأي "تودوروف" حول مصطلح الحوارية الذي جاء به "باختين"؛ إذ تحول مدلول هذا المصطلح معه (باختين) إلى فكرة تدل على المساواة الكاملة بين الرؤى ووجهات النظر المختلفة في النص دون أن يتبنى هذا الأخير موقفا واضحا يقدمه للقارئ، وهكذا اختزلت الحوارية إلى فردية خالصة (كل موقف هو موقف شخص معين)، وإلى نسبية معممة (كل الرؤى متساوية بما فيها وجهة نظر الكاتب). ولقد كان معظم الدارسين والباحثين العرب في رأي ناقدنا مثلا للمثاقفة غير المنتجة وخير ما استدلل به دراسة الناقد المغربي "حميد لحميداني" عندما نقل إلينا حوارية "باختين" دون أن يتنبه إلى أن الشكل الذي يمنحه باختين للرواية الحوارية هو شكل فارغ؛ ذلك أن حواريته لا تعدو أن تكون حوارية سردية؛ أي أنها مجرد سمة تكوينية وبنوية في النص، ولعل هذا ما أفرغها من حوارها حول القيم والأفكار التي تتبناها

الشخصيات زد على ذلك أن باختين يختزل البعد الاجتماعي الحاضر في النصوص إلى الدلالة على التعدد والاختلاف القيمي والطبقي والأسلوبي اللغوي فحسب³⁴

أشار الباحث "شعلان" في معرض حديثه عن تصورات الناقد "زيما" إلى أهم المراجعات التي قام بها لمقولات علم اجتماع الأدب بوجهيه الإمبريقي والجدلي؛ كعدم اهتمام الاتجاه الأول (الامبريقي) ببنية النص، وإغراق الاتجاه الثاني (الجدلي) في المفاهيم الفلسفية والاجتماعية مما أبعده عن مجال النقد الأدبي، كما أن علماء كلا الاتجاهين لم يولوا يعطوا أهمية كبيرة لدراسة النصوص الشعرية، وهي النقطة التي عابها الناقد "شعلان" على "زيما" ضاربا لنا أمثلة بدراساته للخطاب النثري والروائي على وجه الخصوص (بروست، ألبرتو مورافيا، كافكا، سارتر، ...) ³⁵. ولعل الباحث "شعلان" هنا لم ينتبه إلى أن "زيما" قد قدم إجابة شافية حول هذا الموضوع (دراسة النصوص غير السردية) ورأى أن تصوراته قابلة للمراجعة والتطوير وقد لا تصلح للتطبيق على نصوص غير روائية، وهو الأمر الذي أشار إليه الناقد "الطاهر الرواينية بقوله: "على الرغم من سعي زيما لتطوير سوسولوجيا النص عبر تحليله لنصوص روائية لسارتر، وكافكا، وجيد، وموزيل، ومورافيا، وكامو، وغيرهم والتعامل مع ما تطرحه من ظواهر كإشكاليات لسانية: دلالية وتركيبية (خطابية)، واستقصائه لتطور هذه الظواهر وتحولاتها الدلالية والخطابية من كاتب لآخر، فإنه يعتبر أن سوسولوجيا النص ليست نظرية متكاملة يمكن تطبيقها على أي نص أدبي، وأن المقاربة التي طورها من خلال دراسته للتناقض الروائي Ambivalence Romanesque يتحتم اعتبارها مجرد مجموعة من الفرضيات القابلة للمراجعة إلى حد الآن³⁶

التفت ناقدنا . في السياق ذاته . إلى آليات مقارنة الخطاب الروائي عند "زيما" مشيرا بالشرح إلى أهم مستوى يمكننا من قراءة الاجتماعي في النص مصرحا أن "زيما" يركز على مجال الدلالة أكثر منه على مجال الوحدات المعجمية دون أن يعني ذلك إقصاء هذا

الأخير من اهتماماته بل على العكس من ذلك فهذا المستوى (المعجمي) هو المدخل الأساسي في علم اجتماع النص بدليل تحليلات "زيما" للخطاب الروائي الوجودي عند "سارتر" و"كامي"؛ إذ تجلت أزمة القيم في هذه الخطابات في شكل تعارضات معجمية كالخير والشر، الحرية والعبودية... وغيرها، فكان هذا المستوى المنطلق الإجرائي الذي مكن من الوصول إلى البنية السردية³⁷، ولم يكتف باستعراض ما جاء به رائد المنهج السوسيو نصي حول ضرورة التفريق بين اللهجة الجماعية والإيديولوجيا؛ إذ يرى أن ثمة لهجات جماعية تعبر عن مواقف سوسيو تاريخية لفئات معينة دون أن تكون كلاماً إيديولوجياً ويدلل على ذلك بالخطابات الإشهارية. وفي هذه النقطة يرى الناقد "شعلان" أن "زيما" يقع في تناقض "فمن ناحية يؤكد على أن اللهجة الجماعية تستند إلى نظام تشفيري وتصديقي، وتحمل تصورات زمرة خاصة، ومن ناحية أخرى يجعل الخطابات الإشهارية التي تفتقد لهذه الخصوصية ضرباً من اللهجات الجماعية. وفي اعتقادنا أن زيما وقع في إشكال منهجي حينما جعل للهجة الجماعية خصائص النسق الأيديولوجي، وفي الوقت نفسه حاول أن يفصل بين المفهومين من باب المحافظة على الطابع الإجرائي للمفهوم الأول، وعدم خلطه مع مفهوم (أقصد الأيديولوجيا) يبدو. عموماً. ذا طابع فلسفي وفكري فضفاض..."³⁸

وفي تصوره لمفهوم (السوسيو نصية)، أو كما اصطاح عليه الباحث (علم اجتماع النص الأدبي) كمقابل للاصطلاح الأجنبي *sociologie du texte littéraire*، يطرح الباحث تخميناً يراه فيه مجرد مصالحة قام بها "باختين" بين التوجهين الشكلاني والماركسي وفي هذا الصدد يقول: "يمكن اعتبار باختين أهم الشكلانيين الاجتماعيين *socio formalistes* من حيث إنه حاول أن يصالح بين الشكلانية والنظرية الماركسية، وأن يقرأ العناصر الاجتماعية والأيديولوجية في تجلياتها اللغوية"³⁹

قدم الناقد "الطاهر الروائية". ضمن المسار نفسه . ماهية السوسيو نقد . الذي وضعه كمقابل للاصطلاح الأجنبي Sociocritique . عند كل من الناقد: "جاك دوبوا"، "بيرزيم"، و"كلود دوشيه" باعتبار كل واحد منهم يمثل توجهها خاصا في قراءة النص الأدبي، فما بهم الناقد "دوبوا" في مقارباته للنصوص هو النظام الاجتماعي للنص وليس النظام الاجتماعي داخل النص الأدبي كما يرى "فايول"، أما الناقد "كلود دوشيه" فقد بحث في سوسيو شعرية (أدبية) النص معتبرا الأدبية جزءا مكملا للتحليل السوسيو نصي، أما ما بهم الناقد "زيمما" في مقاربتة للنص هو اكتشاف العلاقة التي تربطه (النص) بالمستوى الاجتماعي والتاريخي من خلال اللغة، وينتقد "الروائية" اتجاه "دوشيه" مشيرا إلى ما يطبعه من تغليب للقراءة الأدبية على حساب التفسير الاجتماعي، نظرا لتقصيه الإيحاءات والمضمرات الثانوية داخل النص وداخل اللغة⁴⁰، وللإشارة فإن الناقد يربط مصطلح السوسيو نقد بدراسات "كلود دوشيه" ومصطلح سوسيوولوجيا النص بدراسات "بيرزيمما"

ونجد من الباحثة من يهتم بأهمية توضيح مدلولات المصطلحات وهو ما أكدت عليه الباحثة "ملاح كيسة ميساء" في مقالها؛ إذ حاولت توضيح حدود مدلول السوسيو نقد وغيره من المدلولات ف "السوسيو نقدية أو سوسيوولوجيا النص الأدبي مقارنة للعمل الأدبي وطريقة لقراءة العمل الروائي/الأدبي بشكل عام تركز على حضور كون الاجتماعي في النص الأدبي. ويعد هذا المنهج تتويجا للبحوث النقدية المتعلقة بالتحليل الاجتماعي والأيدولوجي للأدب، والتي ساهمت في ترسيخ مفهوم سوسيوولوجيا الأدب بفضل ما حققته من تطور منهجي وتراكم معرفي منذ ج.ج. روسو ومقاربتة الاجتماعية للأدب (...). ليستمر تطور هذا المنهج مع الباحث الفرنسي (كلود دوشي) الذي كان أول من أطلق مصطلح السوسيو نقدية على البحوث المتعلقة بسوسيوولوجيا النص الأدبي"⁴¹.

وإذا ركزت اهتمامات نقادنا سابقا على مقترحات "باختين" أو "زيما" فإن اهتمامات الناقد "محمد ساري" قد ركزت اهتمامها على جهود "كلود دوشي" باعتباره من اشتهر بمصطلح (السوسيو نقدية) كما يحلو للناقد تسميتها، وقد خص الفصل الرابع من كتابه (الأدب والمجتمع) لهذا المنهج عبر محورين خص الأول منهما باهتمامات وموضوعات السوسيو نقد عند "دوشيه"؛ إذ يسعى هذا المنهج إلى الإحاطة بالنص كل النص، مع رفض فكرة عزله عن إطاره الخارجي؛ لأن الإبداع الأدبي هو أيضا ممارسة اجتماعية، ويبقى الهدف هو معرفة الطريقة التي عبر بها النص الأدبي عن واقع اجتماعي معين؟. ويختتم الناقد محوره بأهم الآراء النقدية التي طرحها كل من الناقلين "روجي فايول" و"جاك دوبوا" حول تصورات "دوشيه"، كاهتمامه البالغ بالنص مما أدى إلى إهمال العناصر التاريخية والاجتماعية وصعوبة الانتقال من بنية النص إلى بنية المجتمع، كما أنه أهمل المضامين المغايرة للأيديولوجية السائدة، كما عيب عليه الاختيار التعسفي للنصوص المدروسة تحت تأثير الذوق وموضة التقاليد المدرسية ما أبعد نصوصا ذات مستويات أدبية مميزة عن مجال الدراسة⁴²، أما المحور الثاني (منهج السوسيو نقدية بين النظرية والتطبيق) فقد خصه الناقد لعرض أهم المشاكل التي اعترضت تطور البحوث الخاصة بالتحليل الاجتماعي والإيديولوجي للنصوص الأدبية كأعمال "غولدمان" و"لوكاتش".

4. خاتمة:

خلص البحث إلى النتائج التالية:

. غياب الأعمال التنظيرية الجادة في مجال السوسيو نصية؛ إذ نلفي أغلبها متأثرا بما جاء به أعلام ذلك التوجه دون مناقشة لأفكارهم ومنطلقاتهم الفلسفية، وإذا ما كان هنالك نقد فهو نقد معرب أعيد تقديمه للقارئ، إضافة إلى انحصار أغلب الدراسات في المجالات في مقابل قلة التأليف النظري مظهرين اهتمامهم بتصورات "ميخائيل باختين"

و"بیر فالیری زیما" مع تغیب شبه کلی لمقترحات "کلود دوشی"، "روجی فایول"، "جاک دوبوا".

. اختلاف النقاد في طرق تلقي السوسيو نصية فكانت دراساتهم عامة أكثر منها متخصصة، وجل الأبحاث السابقة غابت الجانب التاريخي والفلسفي للمنهج، وهذا ما يقودنا إلى طرح مسألة عدم استيعاب النقاد لأهمية التنظير للمنهج قبل تطبيقه؛ إذ أسقطوا من اهتماماتهم هذا الجانب الذي يسير والجانب الإجرائي عبر محور واحد لأن الناقد وهو يقارب النص فإنه يبرهن على صحة ما جاء في حقله التنظيري. فالمنهج ليس أدوات إجرائية فحسب وإنما خلفيات فكرية وفلسفية أيضا، ولعل هذا ما جعل بعض نقادنا يلحون على ضرورة التنظير للمنهج قبل تطبيقه.

. لم يهمل الباحث المراكز النظرية ل(السوسيو نصية)، ممثلة بجهود أعلام النقد الجدلي بوجهيه الآلي والديالكتيكي، واجتهدوا في شرحها وتبسيطها للقارئ، مع اختلاف المقابلات العربية الموضوعة للمصطلحين الأجنيين Sociocritique/Sociologie du texte بين النقاد فكانت: علم اجتماع النص، السوسيو نقد، السوسيو نقدية، سوسولوجيا النص، علم النص الاجتماعي، السوسيو نصية.

5. الهوامش:

¹ جورج بليخانوف، المؤلفات الفلسفية؛ مصادر الاشتراكية العلمية، تر زياد الملا، دار دمشق للطباعة والنشر، د ط، سورية، 1912، ص 74.

² موريس كونفورث، مدخل إلى المادية الجدلية؛ المادية والمنهج الجدلي، تر محمد مستجير مصطفى، دار الفرابي، ط 5، بيروت، لبنان، 2005، ص 141.

³ ليون تروتسكي، الأدب والثورة، تر جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط 1، بيروت، لبنان، 1975، ص 40.

⁴ محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار النهضة العربية، ط 1، بيروت، لبنان، 2009.

⁵ بركان سليم، النسق الأيديولوجي وبنية الخطاب الروائي؛ دراسة سوسيو بنائية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغامي، مخطوط ماجستير، جامعة الجزائر، 2004/2003، ص 27.

- ⁶ ينظر جورج بليخانوف، مرجع سابق، ص 20.
- ⁷ سيد البحراري، علم اجتماع الأدب، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط 1، لونجمان، مصر، 1992، ص 23.
- ⁸ عبد الوهاب شعلان، المنهج الاجتماعي وتحولاته؛ من سلطة الأيديولوجيا إلى فضاء النص، عالم الكتب الحديث، ط 1، إربد، الأردن، 2008، ص 41.
- ⁹ جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، ترنايف بلوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 3، 1985، ص 15.
- ¹⁰ ينظر عمار زعموش، النقد الأدبي المعاصر في الجزائر؛ قضاياها واتجاهاتها، مطبوعات جامعة منتوري، دط، قسنطينة، الجزائر، 2001/2000، ص 113، وما بعدها.
- ¹¹ محمد نديم خشفة، تأصيل النص؛ المنهج البنوي لدى غولدمان، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، حلب، سورية، 1997، ص 44.
- حميد لحميداني، النقد الروائي والأيديولوجيا؛ من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ص 71.
- ¹³ ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، تريوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، ط 1، دمشق، سورية، 1988، ص 21.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 15.
- ¹⁵ بيير زيم، النقد الاجتماعي؛ نحو علم اجتماع النص، تر عايدة لطفي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، مصر، 1990.
- ¹⁶ نفسه، ص 40.
- ¹⁷ حميد لحميداني، مرجع سابق، ص 40.
- ¹⁸ Pierre zima, Manuel de Sociocritique, picard éditeur, 1 édition, paris, France, 1985, p09.
- ¹⁹ بيير زيم، مرجع سابق، ص 172.
- ²⁰ بيير زيم، النص والمجتمع؛ آفاق علم اجتماع النقد، تر أنطوان أبو زيد، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، لبنان، 2013، ص 20.
- ²¹ نفسه، ص 25.
- ²² المرجع السابق، ص 135.
- ²³ ينظر عبد الوهاب شعلان، مرجع سابق، ص 119.
- ²⁴ ينظر المرجع السابق، ص 217.
- ²⁵ نفسه، ص 100.
- ²⁶ ينظر نفسه، ص 310.
- ²⁷ ينظر سيد البحراري، مرجع سابق، ص 08.
- ²⁸ المرجع السابق، ص 311.

- ²⁹ عبد الوهاب شعلان، مرجع سابق، ص 02.
- ³⁰ ينظر المرجع نفسه، ص 88، 89.
- ³¹ المرجع نفسه، ص 89.
- ³² المرجع نفسه، ص 100.
- ³³ رشيد كوراد، سوسيولوجيا النقد الروائي بين رؤية العالم والمقاربة الديالوجية، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع24، جوان 2015، ص 182، 183.
- ³⁴ ينظر عبد الكريم شرقي، المؤثرات الرومانسية في النقد الغربي المعاصر من منظور تزيطيفان تودوروف، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع24، جوان 2015، ص 237، وما بعدها.
- ³⁵ ينظر عبد الوهاب شعلان، مرجع سابق، ص 104، 105.
- ³⁶ ينظر الطاهر الرواينية، سوسيولوجيا الأدب وسوسيولوجيا الكتابة، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع15، أفريل 2001، ص 15، 16.
- ³⁷ ينظر المرجع السابق، ص 112، 113.
- ³⁸ المرجع نفسه، ص 114، 115.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص 82.
- ⁴⁰ ينظر الطاهر الرواينية، مرجع سابق، ص 09، وما بعدها.
- ⁴¹ ملاح كيسة ميساء، المنهج السوسيو نقدي من نص المجتمع إلى مجتمع النص، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع22، جويلية 2014.
- ⁴² ينظر محمد ساري، الأدب والمجتمع، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، الجزائر، د ت، ص 95، وما بعدها.